حين يتستر الخذلان بلباس السلفية: نابتةَ من داخل الصف تُطفئ نور البيان وتهدم معالم المنهج

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، وجعل هذا الصراط مستقيمًا لا اعوجاج فيه، محفوظًا بنصوص الوحيين، قائمًا بحجة الإجماع اليقيني الذي عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والصلاة والسلام على نبينا محمد، الذي بلّغ البلاغ المبين، وترك الأمة على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وعلى آله وصحبه ومن سار على سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد:
فإن من أعظم الأصول التي تميّز بها أهل السنة والجماعة، وارتفعت بها رايتهم، وظهر بها نورهم في ظلمات الفتن: القيام لله بالحق علمًا وبيانًا، وصدعًا لا مداهنة فيه ولا مواربة، إذ الدين ليس كلماتٍ تُقال، ولا دعاوى تُرفع، بل هو حقٌّ يُعرف بدليله، ويُحفظ بحراسته، ويُذبّ عنه بكشف ما يضاده من البدع والضلالات.

وقد تقرر عند أئمة الهدى أن حفظ الدين لا يكون بمجرد تقرير الحق، بل لا بد معه من إبطال الباطل، وفضح أهله، وبيان طرائقهم ومسالكهم، فإن السكوت في موطن البيان تضييع، والتلبيس في مقام النصح خيانة، ومن ترك البيان مع القدرة عليه فقد كتم ما أنزل الله من البينات والهدى، ودخل في الوعيد الشديد، وإن تزيّا بزيّ العلماء، وتصدّر في صورة الدعاة.

وقد نصّ الأئمة على هذا الأصل نصوصًا قاطعة، ترفع كل لبس، وتُبطل كل شبهة؛ قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله:
[إذا سكت العالم تقيةً، والجاهل يجهل، فمتى يتبين الحق؟!]
فبيّن أن السكوت في مقام البيان سببٌ لطمس الحق، فكيف إذا صار السكوت منهجًا يُقرّر، والتخذيل طريقًا يُسلك؟!

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:
[وإذا كان أهل البدع يظهرون بدعتهم، وجب الإنكار عليهم وبيان فسادها] (مجموع الفتاوى 28/221).
فجعل البيان واجبًا لازمًا عند ظهور البدع، لا خيار فيه ولا مداهنة.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله:
[الساكت عن الباطل شيطان أخرس، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق], (إعلام الموقعين 3/6).
فجعل السكوت قرينًا للنطق بالباطل في الخطر، فكيف بمن جمع السكوت والتخذيل؟!

وإن مما ابتُليت به الأزمنة المتأخرة ظهور طائفةٍ لبست لباس العلم، وتزيّنت بشعارات الدعوة، غير أنها نزعت عن نفسها شرف الوراثة الحقة للأنبياء، فصاروا يتكلمون حيث يُؤمَن، ويسكتون حيث يجب البيان، ويُجملون حيث يجب التفصيل، ويُعرضون عن تسمية الباطل وأهله، إما رهبةً أو رغبة، أو تلوّنًا ومسايرة، حتى التبس الحق بالباطل على كثير من الناس، وضعفت معالم المنهج في القلوب.

وقد قرر الأئمة أن هذا المسلك من أعظم أسباب انطماس الحق؛ قال الإمام البربهاري رحمه الله:
[وإذا ظهرت البدع، فعلى العالم أن يُظهر علمه، فإن لم يفعل فعليه لعنة الله], (شرح السنة).
وهذا وعيد شديد يدل على أن كتمان البيان عند ظهور البدع ليس هفوة، بل باب خطير من أبواب الإثم،
وهذا -والله- من أعظم أسباب انطماس نور السنة، وجرأة أهل الأهواء، فإن الباطل إنما يقوى إذا وُجد له من يسكت عنه، أو يهوّن شأنه، أو يخذّل عن كشفه، فاجتمع بذلك شرّان عظيمان: جرأة المبتدع، وخذلان المنتسب إلى العلم.

فكان لزامًا - تحقيقًا للنصح لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم - أن يُبيَّن هذا الأصل بيانًا شافيًا، وأن يُجلى هذا الحق تجليةً تخرق حجب التلبيس، وتكشف دخن التعالم، حتى يعود للحق نصاعته، وللباطل سواده، وللسنة سلطانها، ولأهلها عزّهم وثباتهم، والله المستعان وعليه التكلان.

ما قاله العلامة صالح الفوزان حفظه الله كلمةً هي من جنس كلمات الأئمة، تقطع عروق التلبيس، وتكشف داءً خفيًّا تسلّل إلى بعض المنتسبين للعلم والدعوة، فصاروا - وهم لا يشعرون أو يشعرون - جسرًا يُعبر عليه أهل البدع إلى قلوب الناس.

فيا من ادعيتَ العلم، وتصدّرتَ للدعوة، والتفّ حولك الأتباع ، بأيّ دينٍ تلقى الله وأنت ترى البدع تُنشر، وأصول الضلال تُقرَّر، ورؤوس الانحراف يُلمَّعون، ثم تمسك لسانك؟!
أما علمتَ أن السكوت في مقام البيان خيانة، وأن الإعراض عن التحذير إعانة؟!

إن السلف الصالح - رحمهم الله - ما كانوا يعرفون هذا التلوّن، ولا هذا التخاذل؛ بل كانوا يصدعون بالحق، ويُسمّون البدع بأسمائها، وأهلها بأعيانهم، صيانةً للدين، ورحمةً بالمسلمين.
قال الإمام الأوزاعي رحمه الله:
[عليك بآثار من سلف، وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول], (المدخل للبيهقي).
فدلّ على أن الحق لا يُترك لمراعاة الناس، ولا يُؤجَّل خوفًا من ردودهم.

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله:
[الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء], (مقدمة صحيح مسلم).
فإذا تُرك البيان، وفتح الباب بلا ضبط ولا تمييز، دخلت البدع بلا نكير.

وإن من أعظم البلاء أن يُبتلى العبد بالمداهنة في الدين، فيلبس لباس الناصح، وهو في الحقيقة مثبّط، يخذّل أهل الحق، ويهوّن من شأن البدع، ويزهد الناس في التحذير منها.
فهذا - والله - باب خطير من أبواب النفاق العملي، يخشى على صاحبه أن يُطبع على قلبه، فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا.

فاحذر - رحمك الله - أن تكون ممن قال الله فيهم:
﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ... كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾
فتركُ الإنكار سببٌ للعقوبة العامة، والسكوتُ عن أهل البدع إقرارٌ لهم، كما قرره العلماء.

واعلم أن من خذل أهل السنة في بيانهم، وخذّل الناس عن قبول نصحهم، فهو شريكٌ لأهل البدع في الإثم، وإن لم ينتسب إليهم صراحة؛ لأن النصرة ليست بالانتساب فقط، بل بالمواقف.

فاتقِ الله في نفسك، وفي من اتبعك، ولا تغترّ بكثرة المتابعين أو الأتباع ؛ فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا، واذكر موقفك بين يدي الله، حين يُقال لك: لماذا سكتَّ وقد علمت؟ ولماذا خذّلت وقد قدرت؟

فالزم سبيل السلف، واصدع بالحق، وسمِّ الأمور بأسمائها، فإن هذا هو الدين، وهذا هو النصح، وهذا هو طريق النجاة.
وإياك والتردد، فإن التردد في مثل هذا المقام زيغٌ وانحراف، نسأل الله السلامة.

نسأل الله أن يثبتنا على الحق، وأن يعيذنا من الخذلان، وأن يجعلنا من الناصحين الصادقين، غير المداهنين ولا المبدّلين.

ملحق: آثار الأئمة في وجوب بيان البدع والتحذير من السكوت عنها

ولما كان هذا الأصل من الأصول العظام التي دلّت عليها نصوص الكتاب والسنة، وتتابعت عليها كلمة أئمة الهدى من السلف الصالح، أُتبع هذا البيان بجملةٍ من آثارهم الصريحة الثابتة، ليكون الناظر على بيّنة، ويقف المعترض على حجة:
1- قال الإمام أحمد بن حنبل: [إذا سكت العالم تقيةً، والجاهل يجهل، فمتى يتبين الحق؟!], (مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي).
2- وقال ابن تيمية: [وإذا كان أهل البدع يظهرون بدعتهم، وجب الإنكار عليهم وبيان فسادها], (مجموع الفتاوى 28/221).
3- وقال ابن القيم : [الساكت عن الباطل شيطان أخرس، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق], (إعلام الموقعين 3/6).
4- وقال الإمام البربهاري: [وإذا ظهرت البدع، فعلى العالم أن يُظهر علمه، فإن لم يفعل فعليه لعنة الله] (شرح السنة).
5- وقال الإمام الأوزاعي: [عليك بآثار من سلف، وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول], (المدخل للبيهقي).
6- وقال عبد الله بن المبارك: [الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء], (مقدمة صحيح مسلم).

فهذه آثارٌ محكمة، تدل دلالةً ظاهرة على أن البيان عند ظهور البدع واجب، وأن السكوت عنها خذلان، وأن منهج السلف قائم على الإظهار والإنكار، لا على الإجمال والمداهنة.